القصص القرآني

سلسلة لقاءات قدمت في رمضان 1439 هـ

إبراهيم عليه السّلام

أ. أناهيد السميري

اللّقاء السّادس

مدونة علم ينتفع به

www.tafaregdroos.blogspot.com

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكنّ سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.
- ✓ هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- ✓ الكمال لله عزّ وجلّ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

[البقرة: ١٣٠_١٣٢]

مقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبا مُباركًا، ونحتسب عليه هذا الاجتماع، مُدَارَسَةً لكتَابِهِ، ومُتَابَعَةً لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فقد ثبت عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يجتمع مع جبريل يُدَارِسُهُ القرآن، فهذا من سُنّة النّبيّ الكريم _ مُدَارَسَةَ القرآن في رمضان _ نَحْتَسِبُ على الله أن نكون مُتَدَارِسِينَ للقرآن، ونرجو منه أن يقبلنا، {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}[١] وكنّا بفضل اله قد تعاهدنا هذا العام على أن يكون نصيبنا من القرآن **معرفة إبراهيم عليه السّلام**، الّذي مدحه ربّه كثيرًا في القرآن، وأخبرنا عن صفاته ما يُغْرِي المتّقين السّائرين في الطّريق إلى ربّ العالمين، يُغْرِيهم بمتابعته فإنّ هذا الكتاب إنّما يهدي طالب الصّراط المستقيم، الّذي يتّق أنّ يَزِلَّ عنه، ويعلم أنّه لو زَلَّ عنه ما له إلاّ الضّلال، فَمُتّقي الضّلال، طالب الهداية في الصّراط المستقيم، لابدّ أن يرى أمام عينيه الأنبياء، والصّالحين السّابقين، فينظر لهم وهم سابقون فيتّبع خطاهم، ويرى في هؤلاء السّابقين منارات رفعهم الله، فهم كشمس النّهار، وكضياء القمر في اللّيل، وعلى رأسهم نبيّنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم خليل الرّحمن، وإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم خليل الرّحمن، فهذا يُوجب لنا أن نعرف ما شأنهم؟ ما حالهم؟ كيف كانوا؟ والمصالح في هذا لا تُعَدُّ، ولو بقينا نُراجع ما درسناه لذهب الوقت، وما شبعنا من سيرهم.

فقد علمنا أنّ ربّنا لابدّ أن يمتحن الخلق ويبتليهم بكلمات قدريّة، يبتليهم بأقدار فإن تمّت هذه الكلمات، ووفّوا ما أُمِروا به شكرهم الله، وأعظم شُكْرَ الله للخلق أن يزيدهم من الإيمان والتّقوى حتّى يبلغوا فيصبحوا أئمّة للهُدى، فَيُصبحوا منارات يهتدي بهم الخَلق في الطّريق الّذي يشقّونه إلى ربّهم، ويتركون وراءهم من علامات هذا الطّريق والهداية عليه ما يكون من أعظم العلامات، وأنتم اليوم في أيّ مكان كنتم من العالم، في شرقها أو غربها، إذا نظرتم إلى ما منّ به الله على المسلمين في البيت الحرام ـ وقد منّ الله علينا بأن تُنقل هذه الأحوال حيّة ـ إذا نظرتم لهم في مثل هذه السّاعة الّتي نحن فيها من الظّهيرة، وشمس مكّة يعرفها أهلها، وتنظر إلى المطاف فتجده مليئًا بالطّائفين سبحان الله ! هذا البيت الّذي رفعه إبراهيم ـ عليه السّلام ـ وهذا البيت الّذي جعله الله مَثَابَة، وهذه الأحوال الّتي تُحكَى لك في القرآن، تنظر فتراها في الواقع، وتتأمّل كيف رفع القواعد من البيت؟ وكيف أنه احتاج الحجر ليرفعه أكثر؟ وكيف هذا الشّيخ الكبير يعاونه هذا الابن البارّ فيحتملان وحدهما بناء هذا البيت! لا آلات! ولا معينين! أمر عجيب جدّا في الحقيقة يحتاج إلى كثير من التّفكّر في الحالة الّتي كانوا عليها.

---

[١] [المائدة: ٢٧]

ويُكمل البيت على قواعده، ويدور فيه ليُكمله كما مرّ معنا، ويقول: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أَيُّ نَفْسٍ هذه الّتي شُغِلَتْ برضا الله؟ أَيُّ نَفْسٍ هذه الّتي علمت عظمة الله؟ أَيُّ نَفْسٍ هذه الّتي فهمت أنّ العبد مهما فعل فلن يشكر الله حقّ شكره على ما أنعم؟

فهذا إبراهيم المَمْدُوحُ في كلّ مِلَّةٍ ودِيَانَةٍ لمَّا بَنَى البيت، دعا بأدعية مَعْلُومَةٍ عند أهل الإيمان، مَعْلُومَةٍ في كُتُبِ الماضين، ومن زكاء نفسه وحرصه على الخير وحبّه لنشره، دعا أن يأتي لذرّيته رسولًا له أوصافه، أوصاف الكمال البشري، من أجل أن يتلو عليهم الآيات، ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ويزكّيهم.

فما أعظم هذه الدّعوة! وما أعظم وظيفة الرّسل! وما أنقى نفوسهم، وما أصفاها! نفوس تحبّ الخير، وتحرص عليه، وتنشغل به في حاضرها ومستقبلها، بل في مستقبل غيرها، وهذا كلّه يدفعنا لأن نقول كما وصلنا الإيمان كما بُذل لنا في بيانه وتوضيحه، كما حافظ عليه من قبلنا فبلغنا، لابدّ أن نحمله لمن بعدنا صافيًا، خالصًا، لابدّ أن نبذل الجهود في ذلك ونسأل ربّنا أن يعلّمنا، ويبيّن لنا، ويعيننا على البيان لمن بعدنا.

ومن ذلك أن تشعر مثلًا أنّ من الأمور المهمّة جدًّا أن نتعلّم _ مثلًا نفترض _ عن اليوم الآخر، وكيف أنّ العلم عن اليوم الآخر يُسَبِّبُ اليقين، فتسأل الله أن يُسَخِّر لك من يُعلّمك، أو من يشرح لك، أو من يؤلّف في ذلك، ومن يعلّم من وراءك، ونسأل الله عزّ وجلّ أن يُسَخِّر لأبنائنا من يعلّمهم الإيمان، والإيمان باليوم الآخر، ونسأل الله أن يبقى في كلّ بلد وفي كلّ وقت من يكشف للنّاس وجوه الحقائق، ويبيّن لهم الإيمان وعظمته، ويبيّن لهم أسماء الله وصفاته، ويبيّن لهم اليوم الآخر وما سيلقونه.

دعونا نراجع أنفسنا، نحن حدود اهتمامنا أن نَصْلُحَ نحن وتَصْلُحَ ذرّيّتنا الّتي بين يدينا، سواء كانوا أبناءنا أو أحفادنا، حسنًا ومَنْ وراءنا؟! ومَنْ بعدنا؟! بمعنى: من وراءنا فليسوا هم من خاصّة شأننا، ومن وراءنا يعني: في مستقبل الأمر بعد سنين.

فهذه نفسيّة تعتني بالخير وتهتمّ به وترغب فيه؛ فالله يرزقنا العناية بالخير، وحبّه، وأن يكون إبراهيم عليه السّلام هو قائدنا في ذلك.

نعود إلى مناقشة آيات اليوم، ونسمع الآيات أوّلا:

الآيات:

[٢] [البقرة: ١٢٧]

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)} [٣]

تبيّن لنا فيما سبق أنّ {مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} بمعنى: أَهْلَكَ نَفْسَهُ، أو كما ذكر المفسّرون: جَهِلَ نَفْسَهُ، على أنّ السّفاهة هو الجَهْلُ وضعف الرّأي، وكلّ سَفِيهٍ جَاهِلٍ؛ فمن ترك ملّة إبراهيم الّتي هي ـ الحنفيّة ـ وتشتّت في أفكار النّاس ما بين الإلحاد، وما بين الهوى، وما بين عبادة غير الله، فإنّه قد جَهِلَ نَفْسَهُ، لأنّه لم يعرف أنّ الله خالقه، وقد جاء في بعض الآثار: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه).

فهذا الاستنكار ـ كما مرّ معنا ـ يُرَادُ به بَيَان أنّ العاقل هو من تابع إبراهيم خصوصًا لمن علم أنّ الله قد اصطفى إبراهيم {وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا} يعني: اخترناه في الدّنيا، {وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} يعني مع الأنبياء في الجنّة، فقد اصطفاه الله عزّ وجلّ في الدّنيا والآخرة، وهو في الآخرة من الصّالحين.

وكلّ ذلك تذكير للخلق بأمر هذا النّبيّ الكريم، فَلَمَّا ذُكِّرُوا بذلك، وذُكِّرُوا بإمامته، ذُكِّرُوا بما يُؤْتَمُّ به، ذُكِّرُوا بسبب اصطفائه وصلاحه، ما هو سبب اصطفائه وصلاحه؟ دينه، وما أوصى به بَنِيهِ، وما أوصى به بَنُوهُ بَنِيهِمْ خَلَفًا عن خَلَفٍ، وَذُكِرَ يعقوب خاصّة من أجل أهل الكتاب، الّتي الآيات في سياق الخبر عنهم.

اصطفاه الله عزّ وجلّ لأنّه {قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ} يعني: أَسْلِمْ لربّك، وانقاد له، وأخلص نفسك له، استقيم على الإسلام، واثبت على التّوحيد، واستسلم واخرج من هَوَاكَ {قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} فمعنى هذا أنّه لم يتأخّر أبدًا في هذا الاستسلام قولًا وفعلًا، حتّى أنّه قد فوّض أمره كلّه لله، كما قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنه ـ : (وَقَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَسْتَعِنْ بِأَحَدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) [٤] كما ورد في بعض الآثار.

ونُلاحظ أنّه بادر فورًا حين قال: {أَسْلَمْتُ} دون تريّث، وقال: {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} ما قال: أسلمت لك، فكأنّه أتى بالإسلام، وبدليل الإسلام، بمعنى أنّ إبراهيم عليه السّلام عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنّ لهذا العَالَمِ خالقًا، وأنّ له مَالِكًا، رَبًّا يُرَبِّيهِ، فإنّك ما تجد هذا العالم إلاّ وهو في حال كَمَالٍ، مهما نقص فيه شيء يُكَمَّلُ، فإن نقص فيه المطر أسقى الله الخلق، وإن قلّ الزّرع أنبته الله، فكأنّه استسلم استسلام المتيقّن، لأنّي أسلمت لربّ العالمين، فكيف لا أُسْلِمُ له، فلمن أُسْلِمُ إن لم أُسْلِمْ له؟

---

[٣] [البقرة: ١٣٠ـ١٣٢]

[٤] معالم التّنزيل ـ البغوي ـ تفسير الآية ١٣١ سورة البقرة.

فهذا الطّريق الّذي يُمْدَحُ سالكه، ولهذا اصطفاه الله، يعني لـمّا أسلم نفسه، وانقاد لله، وظهر صدقه، وأتت البلاءات متتالية وهو مستمرّ على طريقه، مُبتعدًا عن الذّنوب، مُقبلًا على الطّاعة، فاختاره الله للرّسالة، واختصّه بها، فإسلامه لله عزّ وجلّ، ومُسارعته للطّاعة، سَبَبٌ للاصطفاء.

نُلاحظ أنّه لم يحصل منه تَوَانٍ أبدًا، فما تَوَانَى، وما استكبر، وإنّما بادر فقال: **{أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** وأيضًا تبيّن لنا أنّه قال: **{لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** كأنّه يقول: هذه العلّة يعني، فأنا في هذا على يقين.

ونكرّر على أنفسنا أنّ هذه الصّفة الّتي هي ــ إسلامه لربّ العالمين ــ صِفَةٌ يُرَاد منها العناية بها، لابدّ أن نعرف ما السّبب في اصطفائه؟ ونعرف أنّه لو سرنا على هذا الطّريق وصلنا لربّ العالمين، لابدّ أن تَنْقاد لأوامر الله، لابدّ أن تسارع إلى تَلَقِّيهَا بالقَبُولِ، لابدّ أن تترك **الإعراض بالقلب واللّسان**، ولذلك نحن نقول: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ}**[٥] هم قالوا هذا ونحن نقول: ربّنا واجعلنا مُسْلِمِين، واجعل مِمَّنْ أسلم لك، وانقاد لأوامرك، وسارِع إلى تلقّيها بالقبول.

وبعد أن عرفت أنّه ربّ العالمين وعرفت عظمته، وعرفت جلاله، وعرفت إنعامَه، وعرفت كرمه، وعرفت لُطفه، ما الّذي تنتظره؟ كن مثل أبيك إبراهيم **{قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** ما تردّد وما استكبر، وما فكّر، وما قدّم عقله على النّصّ، وما قال هاتوا لي في كلّ شأن ما يدلّني بدليل عقلي على أنّ هذا له فائدة وهذا له مصلحة، فما فعل هذا وإنّما قال: **{أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** فأخلص عِبادته، وجعلها سليمة من الشّرك، ولم يلتفت لغير الله، ولا عظّم غير الله، فما كان منه إلاّ أن استقام على الإسلام، وثبت على التّوحيد، ويكون بهذا جمع بين:

الإيمان ← صفة لقلبه

وبين الإسلام ← صفة لجوارحه

عرف ربّه فتيقّن، فما كان منه إلاّ أن استسلم، وانقاد عند كلّ أمر؛ فيكفيك أن تعرف عظمته وجلاله، وتعرف لُطفه وكماله، ما إن يأمرك إلاّ وتكون مُسَلِّمًا.

فهذا الشّأن العظيم، والموقف الكريم لإبراهيم عليه السّلام، الّذي علينا أن نُعيده على أنفسنا، ونكرّره من أجل ألاّ نخسر أنفسنا، ومن أجل ألاّ نكون ممّن سَفِهَ نفسه، فنستسلم لله، ونُسَلّم أنفسنا إلى الله، ونفوّض أمرنا إليه، ونخضع، ونخشع، وهذه الكمالات كلّها إنّما يسير فيها الإنسان على طريق إبراهيم عليه السّلام.

مُلاحظة أخيرة وأنّه قال: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** ما قال: ربّي وإنّما قال: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** إشارة إلى أنّ هذا الأمر فكّر فيه، فرأى أنّ الّذي يُدبّره ويُدبّر غيره لابدّ أن يكون واحد، هذه الحقيقة إشارة إلى معنى ضخم جدّا، دائمًا يحتاج له تفكير، كيف دروبنا كلّها واضحة؟ نسير

[٥] [البقرة: ١٢٨]

فيها، فما يأخذ فلان رزق فلان، بل ربّي وربُّ فلان يقسم لي ويقسم لفلان _ أمر عجيب _ كيف كلّ هذه الأشياء مُسخّرة للإنسان؟ لابدّ أن يكون واحد هو ربّ هؤلاء كلّهم، فتجد الانتظام في كلّ شيء، سبحان الله.

على كلّ حال فهذه الآية تحتاج إلى كثير من التّأمّل لمعرفة ميزة إبراهيم عليه السّلام، لماذا اصطفاه الله عزّ وجلّ في الدّنيا والآخرة؟ لماذا هو من الصّالحين؟ السّبب أنّه {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ} يعني: اذكر هذه الحالة الكاملة {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ} مباشرة قال: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} فلا يشغلنا أين؟ وكيف حصل هذا؟ المهمّ أن تعرف أنّه هذا هو الّذي حصل من إبراهيم، فلا استكبار، ولا عقلانيّة بغيضة فيقدّم عقله المَخلوق على ربّه الخالق فيستعمل عقله في غير مكانه، **عقلك يدلّك على الله ولا يحكم على أوامر الله**، إنّما يدلّك فقط على الله، **فإذا وصّلك عقلك إلى الله فاملأه من عطايا الله**.

نرى بعد ذلك أنّ إبراهيم عليه السّلام _ كما تكرّر معنا _ يُكَمِّل نفسه ويُكَمِّل غيره، فبعدما ظهر أنّه كَمَّل نفسه بقوله: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أتت الوصيّة، فانتقل الكلام الآن إلى الوصيّة من إبراهيم عليه السّلام إلى بَنِيهِ.

فالتّوصية بمعنى: أن تقدّم لغيرك الشّيء النّافع، المحمود العاقبة {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} يعني: إبراهيم ويعقوب فَاعِلَيْ التّوصية.

حسنًا دعونا نرى أوّلا: {وَوَصَّى بِهَا} وصّى بماذا؟

- يمكن أن يكون أوصى بِـ {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} فمعنى هذا أنّه وصّى بالإسلام.
- أو أنّه يكون وصّى بملّته عمومًا.

هو أوصى بذلك بَنِيهِ، وأيضًا وصّى يعقوب بَنِيهِ كما أوصى إبراهيم بَنِيهِ ، لأنّه سيأتينا بعد ذلك في السّياق {إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي}[٦] فإذًا معنى هذه الآية أنّه {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ} يعني: وصّى بالإسلام أو بملّته بَنِيهِ، ونافِلَتُهُ يعقوب وصّى أيضًا، وفيما يُذكَرُ أنّ يعقوب وُلد في حياة جدّه إبراهيم، وهذا العلم عند الله ولكن فيما يذكره المفسّرون، وخصوصًا وهم يفسّرون آية سورة الأنعام {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}[٧] {وَوَهَبْنَا} في آية سورة الأنعام، وفي آية سورة الأنبياء {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ}[٨] {نَافِلَةً ۖ} يعني: أنّه بعد إسحاق؛ على كلّ حال الآية معناها: أنّه كُلاًّ من إبراهيم ويعقوب وَصَّيَا.

ماذا قال إبراهيم؟ ومثله سيقول يعقوب، {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ} يعني: أعطاكم الدّين الّذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام، لا دين غيره عند الله تعالى.

---

[٦] [البقرة: ١٣٣]

[٧] [الأنعام: ٨٤]

[٨] [الأنبياء: ٧٢]

إذًا ماذا تفعلون؟ أتى بجملة وَجِيزَةٍ بَلِيغَةٍ {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} بمعنى: الزَمُوا الإسلام ولا تُفارقوه حتّى تموتوا، ابذلوا جُهدكم في التّمسّك به، لا تكونوا في أيّ وقت على حالٍ يُخالف الإسلام، لا يأتيكم الموت فجأة وأنتم على لستم مُستسلمين فيه لله بقلوبكم ، لأنّ الإنسان لا يملك لنفسه أن يموت على الإسلام، لكن من عاش على شيء مات عليه، فكأنّه يقول: أنت في مقدورك أن تُجاهد نفسك طول الوقت من أجل أن تكون على الإسلام، فلا يأتيك وقت تكون فيه متّصفًا بحال خِلاف الإسلام، فإذَا أنت سرت على هذا في حياتك ستجد أثره واضحًا وقت مماتك، والمهمّ في شأن الإسلام أن تموت عليه _ والله إنّ هذه الكلمة غاية في العظمة _ من جهة تقرير الطّريقة الّتي يعيش بها الإنسان، لأنّ الإنسان إِذَا علم أنّ الموت يأتيه فجأة، وعلم أنّه هذه الحالة الّتي يجب أن يكون عليها وقت الموت، فإذًا ماذا يفعل؟ يلزَم الإنسان الحالةَ الموصوفَةَ له بالكمالِ، فيموت الإنسان وهو قد امتلأ عقيدة، وامتلأ إيمانًا، وامتلأ معرفة بربّ العالمين، واستسلامًا له، ورضًا به، وكلّ يوم يزيد عليه، يزيد ثِقَةً بالله، وإحسان الظّنّ بالله، ومعرفة أنّ تدبيره خير من تدبيرنا، والاستغفار على كلّ مرّة اعترضنا فيها على قدره، على كلّ مرّة اعترضنا فيها على شرعه، أو ضاقت نفوسنا بشأن من شؤون الحياة الّتي قدّرها الله، كلّ يوم يزيد نستغفر فيه على ما مضى، ونزيد إحسان الظنّ بالله.

وهذا سيوافق الّذي ورد في الصّحيحين، ورواه جابر رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ((**قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، يَقُولُ** : ((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) نعم إنّها مسألة عظيمة أن تموت وأنت مُحْسِنٌ الظّنَّ بربّك، قد علّمتك الحياة أنّ لا اختيار أحسن من اختيار الله، ولا خير إلاّ فيما شَرَعَ الله، ولا شرّ إلاّ في مُخالفة أمر الله، ولا شُكر إلاّ لله، ولا ثَناء إلاّ على لله، ولا حَمد إلاّ لله، خَرجتَ من مدرسة الحياة وكلّ شيء في نفسك متّجه لواحد، حبّا، ورضا، وثقةً، وسؤالاً، ورجاء، تطوف حول رضاه، وتسعى أن تلقاه وهو راضٍ، وهذا الأمر انظروا كيف اهتمّ به إبراهيم عليه السّلام؟ لأنّه من شأن أهل الحقّ والحكمة أن يكونوا كما هم حريصين على أنفسهم لابدّ أن يصلحوا مَنْ وراءهم، ويحرصوا على دوام الحقّ في الناس، ولذلك {وَصَّى بِهَا} سُنّة مشهورة، ويأتي كلّ أحد فيقول: إنّ أبانا قد وصّى بها، فلا يحيدون عن طريقه، ويحصل لهم مجاهدة في نفوسهم، وكلّما مرّ زمن ذكّروا بها أنفسهم، بهذه الوصيّة العظيمة، فالوصايا أمر نَفيس يجدر بنا أن نحتفظ به، لا تموت إلاّ وأنت مسلم، لا تضرّ نفسك وتعيش على غير الإسلام، وتريد في الأخير أن تكون ميّتا على الإسلام.

فإبراهيم عليه السّلام عاش على الإسلام {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} وكانت هذه هي الوصيّة لمن وراءه، وهذه الوصيّة منّا لمن وراءنا، وصيّة من طَلَبة العلم لطُلاّبهم، ووصيّة من الآباء لأبنائهم، ووصيّة من العُلَمَاء لطَلَبة العلم، ووصيّة يجب أن تدور بين النّاس دائمًا، {لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} مهما حصل أخطاء تُبْ، وارجع، واستسلم، واجعل مدرسة الحياة تزيدك استسلاما لربّ العالمين.

---

[٩] [صحيح مسلم _ كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا _ بَابُ الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ _ حديث رقم 5256]

يقول الشّيخ السّعدي في الآية: **(ثم ورّثه في ذرّيّته، ووصّاهم به،)** يعني: الإسلام **(وجعلها كلمة باقية في عقبه،)** يقصد: كلمة لا إله إلاّ الله **(وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصّى بها بَنِيهِ.)** يعني على ذلك يكون إبراهيم عليه السّلام وصّى بَنِيهِ: إسحاق وإسماعيل ـ هذا ما نعرفه من أبنائه ـ صلّى الله عليهم جميعًا وسلّم ثمّ إسحاق وصّى يعقوب، يقول الشّيخ: **(حتّى وصلت ليعقوب)** وأكيد أنّ سبب ذكر يعقوب واضح بسبب أنّ السّياق فيه إشارات لبني إسرائيل، فيقول الشّيخ: **(فأنتم ـ يا بني يعقوب ـ قد وصّاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء)** فهذا المَلْحَظُ في يعقوب، بماذا وصّى؟ قال الشّيخ: (**قال: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ} أي: اختاره وتخيّره لكم، رحمة بكم، وإحسانا إليكم، فقوموا به، واتّصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمرّوا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلاّ وأنتم عليه،)** ويُقرّر القاعدة الّتي كنّا قد اتّفقنا عليها استفادة من كلام الشّيخ السّعدي: **(لأنّ من عاش على شيء، مات عليه، ومن مات على شيء، بُعِثَ عليه.)** فهو لا يستطيع أو يوصيهم شيئًا ليس في يدهم، فليس بِيَدِي أن أموت على وضع معين، وأنتم تعلمون أنّ الموت بالذّات من دلائل عزّة الله وقهره لخلقه، فإنّه يأتيهم بصورة ليس لها حساب، سبحان الله، فدائمًا نتصوّر أنّنا نموت على فراشنا، لكن من قال لك أنّك ستموت على فراش الموت؟ من قال لك؟ الله يعيننا.

على كلّ حال هذه الوصيّة العظيمة لابدّ أن تكون من ضمن ما نوصي به أبناءنا ليلًا ونهارًا، هذه وصيّة بالإجمال، وبعد ذلك وصايا بالتّفصيل حولها.

نبتدأ **{فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** وننتهي من افعل كذا، وافعل كذا، من التّفاصيل، لأنّ من عاش على شيء مات عليه، ولا تيأسوا من روح الله، علّموهم، ونبّهوهم، وبيّنوا لهم، فيزدادون فهما في مدرسة الحياة، لو علّمناهم قواعد التّفكير، لو علّمناهم من هو الرّحمن الرّحيم؟ لو علّمناهم من هو الرّبّ الكريم؟ فمن أجل ذلك مثلما مرّ معنا، وقد ذَكَرَ **ٱلْفُضَيْلُ بن عِيَاض** في هذه الآية: **{فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** ذَكَرَ ما مرّ معنا في أن تكون مُحْسِنًا ٱلظَّنَّ بالله **(أَيْ مُحْسِنُونَ بِرَبِّكُمُ ٱلظَّنَّ)** تموت وأنت مُحْسِنٌ ٱلظَّنَّ بالله.

ولكن كيف آتي بإحسان الظنّ؟ تعيش مدرسة الحياة، وأنت تتعلّم عن الله، وكلّ يوم يزيد عليك، يزيدك يقينًا بكماله، وجلاله، وعظمته سبحانه وتعالى.

يظهر الأمر أكثر في الآية الّتي تليها **{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** وهنا تأكيد وبيان، أنّ هذا الدّين الّذي هو دين ٢

[١] تيسير الكريم الرّحمن ـ عبد الرّحمن السّعدي ـ تفسير الآية ١٣٢ سورة البقرة.

[١] معالم التّنزيل ـ البغوي ـ تفسير الآية ١٣٢ سورة البقرة.

[١] [البقرة: ١٣٣]

الإسلام، إنّما هو دين كلّ الأنبياء، لاحظوا {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} فأبناء يعقوب الّذين هم في قصّة يوسف الاثنا عشر ابنا هم أسباط بالنّسبة لإبراهيم عليه السّلام، فهؤلاء وصّاهم يعقوب ولذلك قال الله عزّ وجلّ: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ} بمعنى: ما كنتم حاضرين حينئذ، فيعني إنكار، ولكن الإنكار على من؟ في الأصل الإنكار على بني إسرائيل، يعني لم تكونوا حاضرين في هذه الحال ويعقوب يُوَصِّي أبناءه _ وهم الأسباط _ لمّا حضره الموت، فيسألهم {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي} يعني أيّ شيء تعبدونه بعد موتي؟ يريد ماذا لمّا يسألهم هذا السّؤال؟ يريد منهم أن يقرّروا التّوحيد والإسلام، يريد أن يأخذ ميثاقهم، أنّهم ثابتين على هذا المعنى، وهذا يدلّ على أنّ هذا هو الّذي كان يشغلهم {قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ} من؟ {إِبْرَاهِيمَ} فهو جدّهم، وأيضًا إسماعيل وإسحاق هو عمّهم، يعني: عمًّا ليعقوب، لكن اعْتُبِرَ من جملة آبائه، لأنّه كما هو معلوم أنّ الْعَمَّ أبٌ، والْخَالَةُ أُمٌّ.

هذا الموضوع أظنّه واضحًا، وقد ورد في الحديث عن عليّ رضي الله عنه: ((أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ)) يعني ليس هناك تفاوت بينهم، كما أنّه لا يوجد تفاوت بين صِنْوَيْ النّخلة.

المقصد أنّه أَوْصَاهُمْ، فكان هذا ردّهم: {إِلَهًا وَاحِدًا} في هذا تحقيق من البراءة من الشّرك، والتّصريح بالتّوحيد، وهذا هو دين إبراهيم عليه السّلام، فهذه هي عقيدتهم، وهذا هو عملهم، ما هو عملهم؟ قالوا: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} بمعنى: سنكون مُخلصِين في عِبَادَاتِنَا، مُطِيعين، خَاضِعِين، ونؤكّد أنّ الإسلام هو ملّة الأنبياء قاطبة، وإن تنوّعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، لأنّ الله عزّ وجلّ قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}

فهذا النّبأ الّذي سمعناه عن وصيّة إبراهيم ويعقوب عليهما السّلام لِبَنِيهِمَا، دلاّ على أهمّيّة التّربية على التّوحيد، فتكون كلّ حياتنا لتربية أبناءنا على التّوحيد، وتكون وصيّتنا وقت حضور الموت على هذا الأمر، ونؤكّد على هذا الأمر، فيكون المربّي قد احتاط لنفسه، واحتاط لدينه، لتوفية الأمانة، وللقيام بها، واحتاط لِبَنِيهِ، فأرشدهم، وعلّمهم، وَبَيَّنَ لهم.

والحقيقة إن كان في قلوبنا شَفَقَةً على أبنائنا، وهذه الشّفقة من الطّبيعي أن تكون أكثر من شَفَقَتِنَا على غيرهم، فلابدّ أن نحيا الحياة معهم ونحن نوصيهم بالتّوحيد حتّى نصل إلى آخر عمرنا، ندلّهم على أنّ هذا هو أهمّ شيء عندنا:

- ✓ الّذي يرضيني أن تصلّي في وقتك.
- ✓ الّذي يرضيني أن تصلّي كما يحبّ الله ويرضى.
- ✓ الّذي يرضيني أن تستسلم لله.
- ✓ أن تقبل قدر الله.
- ✓ أن ترضا عن الله.

---

[1] [مسند أحمد ابن حنبل _ مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ _ مُسْنَدُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ حديث رقم 714]

[1] [الأنبياء: ٢٥]

ولاحظوا أنّ إبراهيم ويعقوب ما أدخلا على هذه الوصيّة وصيّة أخرى، فما قالا: ما تفعلان وما تفعلان، ولا قالا: افعلوا وتفعلوا، أبدًا فهذا هو الشّيء المهمّ إطلاقًا:

- ✓ ستعيش تحبّ من؟
- ✓ وتعظّم من؟
- ✓ وتعرف من؟
- ✓ وتعبد من؟
- ✓ وتصلّي لمن؟
- ✓ وتسأل من؟
- ✓ وعند حاجتك ترجو من؟
- ✓ لابدّ أن تطمّني من هو العظيم في نفسك؟

وَلِيُعْلَمْ عند الأبناء أنّهم لا يُثَابُونَ على طاعة الآباء، والعكس صحيح، فالآباء يُثَابُونَ على طاعة الأبناء، فإذا كان الأبناء لا يُثَابُونَ على طاعة الآباء، فعليهم أن يهتمّوا بأنفسهم، وإذا كان الآباء يُثَابُونَ على طاعة الأبناء، فعلى الآباء الحرص الشّديد على صلاح أبنائهم.

وقد قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لصفيّة: ((يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا))[15]وفي الرّواية المشهورة ((وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))[16]

فلا تعتمد يا بُنَيَّ على أنّ أباك صالحًا، فقد يُتَصَوَّرُ أنّ الأب الصّالح سينقذه من النّار! ربّما سينفعك أباك الصّالح في رفعة منزلتك، أو في نَوْعٍ من الشّفاعة، **لكن لو لم تأتي بالتّوحيد، وبأصول الدّين،** فلن ينفعك شيء {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ}[17]{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}[18]هَاتِ التّوحيد، ثمّ بعد التّوحيد يمكن للآباء أن ينفعوا الأبناء، وتحصُل منهم نوع من الشّفاعة للأبناء، لكن أهمّ شيء أن تكون موحّدًا، نعم أهمّ شيء أن تحرص على التّوحيد، ويمتلأ قلبك إيمانًا، فحتّى لو حصل تقصير بعد ذلك _ وأنا لا أترك لك في هذا الكلام مجالًا أن تقصّر _ لكن لو حصل التّقصير

١ [صحيح البخاري _ كتاب تفسير القرآن _ باب {وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك} [الشعراء: ٢١٥] _ حديث رقم 4511]

١ [صحيح مسلم _ كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ _ بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ _ حديث رقم 4996]

١ [المؤمنون: ١٠١]

١ [النّساء: ١٢٣]

بعد وجود التّوحيد الحقيقيّ _ وليس التّوحيد الّذي هو دَعْوَى بمعنى أن تكون عِشْتَ في مجتمع موحّد تعتقد نفسك مُوحّدًا _ وإنّما تعرف الله، وتعرف كماله، وتعرف جلاله، وتحسن الظنّ به؛ فها هم أبناؤه قد طمأنوه أنّهم سائرون على مثل سيره.

إذًا سنعود ونُقرّر أنّ إبراهيم عليه السّلام كان منارة للتّوحيد، اعتنى به في حياته، واعتنى به حتّى عند مماته، فقد كان هو همّه، فوصّى به بَنِيهِ، وأخذ هذه الطّريقة _ وهي طريقة التّوصية _ أخذها بَنُوهُ أيضًا عنه، فوصّى يعقوب _ وهو نَافِلَتُهُ _ وَصَّى بها أيضًا بَنِيهِ؛ وهكذا كلّ من سار على طريق الحقّ والصّواب وصّى بالتّوحيد الّذي هو أهمّ شيء، راغبين أن يكون هذا الّذي ينفع الأبناء عند الله.

نُنْهِي هذا اللّقاء بالإجابة على سؤال تكرّر من عدّة طُرُقٍ، وهي مسألة الدّعاء في الفريضة هل يجوز الدّعاء بشأن الدّنيا؟

نسمع إجابة الشّيخ ابن عثيمين رحمه الله في هذا الشّأن:

السؤال: (لا يجوز السّؤال لملاذ الدّنيا في الصّلاة؛ اللّهمّ ارزقني جارية حسناء، أو دابّة عملاقة، وتبطل الصّلاة بذلك. فهل هذا صحيح؟ وهل هناك فرق بين الفريضة والنّفل في هذا؟)

الجواب: (الشّيخ: **كون الإنسان لا يجوز أن يدعو في صلاته بملاذ الدّنيا ليس بصحيح، فللإنسان أن يدعو في صلاته وخارج صلاته بما شاء، وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربّه حتّى شراك نعله»** [١] **. وفي حديث ابن مسعود في الصّحيحين لمّا ذكر التّشهد قال: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ»** [٢] **.**

وقوله «ما شاء» لفظ عامّ؛ لأنّ (ما) اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، فيقتضي جواب الدّعاء بما شاء من أمور الدّين وأمور الدّنيا والآخرة، فيجوز للإنسان أن يسأل في صلاته الفريضة والنّافلة ما يتعلق بأمور الدّنيا مثل أن يقول: اللّهم ارزقني زوجة حسناء، أو سيّارة طيّبة. أو ما أشبه ذلك؛ لأنّ عموم الأحاديث تدلّ على هذا، وقد قال النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: «أمّا السّجود فأكثروا فيه من الدّعاء». ولم يخصّ دعاء دون دعاء، فالصّواب في هذه المسألة جواز دعاء الإنسان بما شاء من خير الدّنيا والآخرة في صلاته.) [٣]

الحمد لله، نسأل الله عزّ وجلّ أن يعلّمنا، وأن يفقّهنا، ويجعلنا ممّن دعاه في كلّ شأنه، شأن الدّنيا وشأن الآخرة،

ربنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

[١] عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِيَسْأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ» رواه ابن حبان وضعفه الألباني .

[٢] رواه مسلم في صحيحه.

[٣] سلسلة فتاوى نور على الدّرب _ لفضيلة الشّيخ العلاّمة محمد بن صالح العثيمين _ (الشريط رقم [٢٨]) حكم الدّعاء في الصّلاة بملاذ الدّنيا.